الفَصْلُ الثَّالِث

الدولة الساسانية

حكمت الهضبة الإيرانية كثيرًا من الإمارات المتناحرة فيما بينها، إلا أن إمارة البارثيين وعاصمتها إصطخرا عاصمة ملوك فارس القدماء ظهر فيها الملك ساسان، ويقال: إنه من سدنة بيت النار، وخلفه في الحكم بابك الذي أخضع الإمارات حوله إلى أن جاء ابنه أردشير، فزادت قوته بإخضاع المزيد من الإمارات حوله، وقد اصطدم جيشه بالعيلامين جنوب شرق إيران، فهزمهم، وبعد إخضاعه أكثر الأقاليم والهضبة الإيرانية اتجه بجيشه إلى العراق لإخضاع مملكة بابل سنة ٢٢٦م، وتزوج بابنة ملك بابل، وتم له إخضاع العراق بمباركة من الإله أهورا مازدا كما يدعون، واتجه شمال العراق بجيشه، وقابل جيش أرمينيا في ملك خسرو المؤيد من قبل الإمبراطورية الرومانية، فانهزم خسرو في المعركة، وفي عهده تحقق للإيرانيين الإمبراطورية الساسانية واسعة الأطراف، فأخضع كلًّا من إيران والعراق وأفغانستان وبلاد العرب حتى حدود أوروبا، وانتزع حران ونصيبين من ملك الرومان، واتجه إلى الهند، وأخضع جزءًا منها إلى نفوذه، ويشكل العنصر الفارسي رأس الحربة في الحكم الساساني، ويعتزون بحكم أسلافهم من الفرس، وقد سادت اللغة البهلوية إلى جانب اللغة الإشكانية، وكانت مدينة إصطخرة عاصمة لهم في هذه الفترة، وفي عهده أعاد بناء كثير من المدن ومن أهمها أرد شير خسره (فيروز أباد) وهرمند أرد شير (الأهواز) ومدينة هشتا باد (البصرة) ومدينة ميسين القديمة، فأصبح أرد شير أسطورة الدولة الساسانية، وأحيط بالأساطير والمعجزات، وغزا أردشير إمارة ميسان العربية في العراق التي كان يحكمها عرب كانوا قد جاؤوا من عمان، وقد ساد

في عهده المذهب الذرادشتي وتطبيق التعاليم الواردة في الأفستا، خاصة ما تعلق منها بالحكمة والأخلاق، وقسم المجتمع إلى طبقات عدة وكل طبقة إلى فئات عدة، ووضع للجميع أعمالاً ومهام يقومون بها، ويحاسبون بموجبها، وهي:

١- طبقة رجال الدين، وتحتوي على: أ- فئة الحكام والقضاة (دادور): ب- فئة الزهاد وسدنة المعابد (الهربدان) ج- فئة المعلمين (المغان) د- فئة المراقبين (دستوران) هـ- فئة العباد.

وطبقة رجال الدين تتمتع بنفوذ واسع في المجتمع حيث لها القضاء والحكم بين الناس وعقد الزواج والطلاق وتجهيز الموتى، ويتمتع المغان بنفوذ مادي وملكية الإمبراطورية، وكان أعلى منصب لرجال الدين هو منصب الموبذان[١] الذي يتم اختياره من بين الموابذة، وهو مستشار الملك.

٢- طبقة رجال الحرب (أرتشتاران).

٣- طبقة الكُتَّاب: وهم مجموع موظفي الدولة (دبيران).

٤- طبقة الشعب: وتحتوي على فئة المزارعين والصناع[٢].

الصلاة في الزرادشتية:

أربعة أوقات في الزرادشتية يصلى فيها إلى النار الموقدة في المعبد أو البيت وإلى الشمس والقمر والماء، ويقوم على ذلك رجال الدين في معبد النار، وتتم الصلاة جماعةً بقيادة رجل الدين (الموبذ) أو أفراده، ويتلون في صلاتهم بعض ما ورد في الأفستا وخاصةً ما تعلق منها بالابتهالات والأدعية للإله أهورا

(١) يبدو أن رجل الدين عند الشيعة في إيران قد ورث الكثير من السمات والصفات التي كانت للموبذ ويبدو أن منصب الموبذان لا يخلو من علاقة بين فكرة المرجعية المذهبية عند الشيعة في إيران.

(٢) حسن برنيا: تاريخ إيران القديم، ص٢٩٣ وما بعدها، ترجمة: د. محمد نور الدين عبدالمنعم - د. السباعي محمد السباعي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.

مازدا، ويقال: إن من أسباب نجاح الإمبراطورية الساسانية هو اهتمام ملكها برجال الدين وجمعه لنصوص الأفستا وإلزام الناس بتطبيق تعاليم زرادشت وخلط المسائل الروحية بالمسائل الدنيوية التي لها علاقة بتقدم الإمبراطورية[١].

رأي الزرادشتية في خلق العالم:

أُسِّست الزرادشتية على الفكر الديني القديم الذي سبق شرحه في خلق العالم، ولكن إضافة الزرادشتية تفاصيل أخرى لهذه الديانة، فالحياة عبارة عن سلسلة من مجموعة من الدورات كل دورة اثنا عشر ألف سنة تنتهي في نهايتها أكثر المخلوقات، وكل دورة تقسم إلى أربع مراحل كل مرحلة ٣٠٠٠ سنة يقوم فيها الإله أهورا مازدا بترتيب وخلق العالم الدنيوي وهزيمة الإله أهريمان، وفي نهاية كل دورة وبعد تكاثر الشرور يخرج المخلص ليعيد ترتيب العالم مرة أخرى، والطيبون الخيرون يعبرون الجسر المنصوب على جهنم سائرين إلى الجنة، بينما يتساقط الأشرار في جهنم، وشهر الزرادشتية ثلاثون يومًا أعطوا كل يوم اسمًا من أسماء الإله التي تسيره، وجعلوا لبعض أيام الشهر فألها خير وأخرى فألها شر، فاليوم الثامن عشر يوم مرح وسعادة، وقد تأثروا بعادة النواح والبكاء ولطم الخدود مما كان يفعله الأشوريون ببابل (انظر: كتاب فاضل الربيعي بعنوان (النياحة العظيمة) صفحة٨٨.

الديانة المانوية:

ظهرت الديانة المانوية في مدينة طيسفون (المدائن) في العراق على يد ماني الذي ولد سنة ٢١٦م وتُعدّ حركة ماني حركة إصلاحية دينية واجتماعية ركزت على أهمية التوجهات الروحية والأخلاق الطيبة وعدم الانشغال بالمسائل

(١) د. سامي سعيد أحمد، رضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم إيران والأناضول، ص١٦٨ وما بعدها - وزارة التعليم العالي والبحث العلمي - بغداد - ١٩٠٠م (٦) محمود شاكر: إيران، ص١٥ وما بعدها - بيروت - مؤسسة الرسالة - ١٩٧٥م (٦) آرثر كرس تنسن: المصدر السابق.

الدينية الشكلية التي لا فائدة منها، وأن الانسان يجب أن يطلب الحكمة في قوله وعمله، ويرى ماني أن الملوك هم من نسل الإله، فقد أضفى عليهم وعلى أعمالهم صفة الربوبية، وتعاليم ماني عبارة عن تعديل لأفكار زرادشت أو إضافة عليها، ويمكن تلخيص إضافات ماني كما يلي:

أ- الإيمان: وهو عبارة عن أربعة مبادئ هي: الله ونوره وقوته وحكمته.

ب- ألا يعبدوا الأصنام؛ أي البعد عن التجسيم.

ج- ترك الكذب؛ لأنه أهريمان.

د- ترك البخل؛ لأنه من الظلام. هـ- ترك القتل؛ لأنه من الشر.

و- ترك الزنا؛ لأنه من الطمع.

ز- ترك السرقة؛ لأنها من الحسد. ح- تعلم العلل والسحر: لإيقاف أهر يمان وأبنائه من الأبالسة والشياطين. ط- الشك في الدين؛ لأن هذا يدفع إلى الوصول إلى الحكمة، والنور. ي- التفاني في العمل؛ لأن العمل الصالح به الخلاص من الشرور[١].

وقسم ماني المجتمع إلى طبقات عدة، وهي:

- المعلمون: وهم أبناء الحلم.
- المشمسون: وهم أبناء العلم.
- القديسون: وهم أبناء العقل.
- الصديقون: وهم أبناء الغيب.
- السماعون: وهم أبناء الفطنة.

---

(١) آرثر كريس تنسن: (إيران في عهد الساسانيين) ترجمة: يحيى الخشاب.

ولماني كتب عدة هي:

- شريقان: شرح فيه أحوال النفس الخيرة وأحوالها الشريرة.
- كنز الأحياء: وهو في أحوال السماء والأرض والنور والظلمة وما ينتج عنهما.
- الهدى والتدبير: وهو عبارة عن أدعية وصلوات وترانيم.
- سفر الإسراء: وفيه طعن على معجزات الأنبياء.
- سفر الجبابرة: أوضح فيه رموز الشر والظلام، وعمومًا فإن هذه الأفكار لها علاقة بالفكر الديني الذي كان سائدًا بوادي الرافدين خاصة عند الأشوريين[1].

مذهب المزدكية:

يقول الدينوري: «إن أصله من إصطخر»، أما صاحب (تبصرة العوام) فيرى أن مزدك ولد في مدينة تبريز وقد ظهر مزدك حول سنة (٤٨٧م) في فارس، ويقول الطبري: «إنه من نيسابور» ومذهب مزدك كان طابعه إصلاح مذهب ماني، وهو كالمانوية الأولى بدأ بالأصلين القديمين النور والظلام، وهو يختلف عن مذهب ماني؛ لأنه يقول: إن الظلمة لا تعمل كما يعمل النور بالقصد والاختيار، لكنها تعمل على الخبط والاتفاق، وعلى هذا كان يمتزج النور بالظلمة، ومنه نشأت الدنيا وعلى ذلك فعلوا النور أكثر توكيدًا لنظرية المزدكية منه في المانوية، وقد قال مزدك بوجود ثلاثة أركان للنور، وهي الماء والنار والتراب، ولما

---

(١) ساهر رافع: تاريخ وحضارة إيران، ص٢٥٦ وما بعدها، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠١١م/ حسن برنيا: المصدر السابق، ص٣١٧ وما بعدها.

د. سامي سعيد أحمد، رضا جواد الهاشمي: تاريخ الشرق الأدنى القديم إيران والأناضول، ص٥١ وما بعدها، بغداد، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٠٠م.

اختلط النور والظلمة نتج منها مدبر الخير ومدبر الشر، فما كان من صفوها فهو من مدبر الخير، وما كان من كدرها فهو من الشر، وقد صور مزدك معبوده، وهو قاعد على كرسي في العالم العلوي على هيئة قعود كسري في العالم السفلي وبين يديه أربع قوى، وهي (قوة التميز، والفهم، والحفظ، والسرور) وقد نهى مزدك عن المخالفة والمباغضة والقتال، وعندما كان ذلك يقع بسبب عدم المساواة بين الرجال، فقد أوجب إزالة السبب، وهناك قواعد فرضت على الطبقة العليا في الفرقة المزدكية لمثل هذه المبادئ ما أدى إلى الزهد ورياضة النفس، لكن رؤساء المزدكية راوا أن الناس لا يستطيعون التخلص من حب اللذات المادية؛ أي كالرغبة في النساء وتملك الأموال، وبهذه الفكرة ظهرت النظرية المزدكية الاجتماعية التي تقول: إن الله جعل الرزق في الأرض ليقسمها العباد بينهم بالتساوي، حيث لا يكون لأحدهم أكثر مما لغيره، والحقيقة أن من كان عنده من فضلة من الأموال والنساء والأمتعة فليس هو أولى بها من غيره، فينبغي أن يأخذوا للفقراء من الأغنياء أو أن يردوا من الأكثرين للمقلين، وقد أصر المزدكية على الوجوب بالقيام بأعمال الخير، فإنهم لم يحرموا القتل فقط بل حرموا حتى إدخال الألم لنفس، واهتم المذهب بالضيافات، فيوصي بألا يمنع الضيف من شيء يلتمسه كائنًا من كان، وتصل مزدك بالملك (قباذ) وقد ذكر الثعلبي والفردوسي أن مزدك استطاع في أثناء قحط حل بالناس أن يقنع الملك بحيله الماكرة بأن من يمنع رجلًا محتاجًا من الطعام والشراب يجب أن يقتل، وبذلك أتاح لقومه السوقة أن يستولوا على ما كان في الأهراء من الغلات. كانت المزدكية في الأصل مذهبًا دينيًّا، ولم يكن له مظهر لمذهب اجتماعي إلا شأن القليل فيه والقوانين التي أصدرها قباذ كانت ثورية لم يكن بها إلا مسحة قليلة دينية ليحقق بها المُثل العليا وفي هذه الفترة بدأت المبادئ الشيوعية تتحقق في السوقة، وكانوا منذ أجيال في ضيق، وقد ظهرت المبادئ بطيئة في أول الأمر، ثم ما لبثت أن أسرعت، وعمت، واستفحل أمر الاستيلاء، فبدأ العدوان، فاقتحم الثوار قصور الأشراف

ناهبين الأموال ومغتصبين الحرائر إلى أن جاء كسرى أنو شروان ورد الأموال إلى أهلها.

يرى الباحثون أن تعاليم مزدك كانت اشتراكية من أقدم الاشتراكيات في العالم، ويقول الأستاذ نولدكه: «إن الذي يميز مزدك عن الاشتراكية الحديثة هو ما لتعاليمه من الصبغة الدينية» وقد اعتنق مذهبه آلاف من الناس، ولكن قباذ نكل بهم أخيرًا، ودبر لهم مذبحه سنة (٥٢٣م) كاد يستأصلهم بها عن آخرهم»[١].

(١) محمود شيت خطاب: (قادة فتح بلاد فارس) ص٤٢ وما بعدها، دار الفتح، بيروت، ١٩٧٤م/ آرثر كر ستنسن: (إيران في عهد الساسانيين) / عبداللطيف الحسن: (جذور التشيع) ص٣١، مكتبة العبيكان، الرياض.